

النسق الأسطوري للاستمطار في الشعر الجاهلي- الثور الوحشي أنموذجا -
The Mythological Framework of Rain Invocation in Pre-Islamic Poetry - The
Wild Bull as a Model

دلال شيباني،^{*1} جامعة محمد خيضر بسكرة، dalal2015alg@gmail.com

<https://orcid.org/0009-0003-1350-1146>

2025-05-11	تاريخ القبول	2025-01-14	تاريخ الاستلام
------------	--------------	------------	----------------

ملخص

شكلت ملامح وبقايا أسطورة الثور الوحشي في القصيدة الجاهلية نسقا كليا للثور، تتفرع عنه صفات ظاهرية وحقائق باطنية تتمركز حول فاعلية استمطاره التي تظهر في ممارسة سحرية تتحكم في إنزال المطر، ووجود قصة الثور الشعرية بمثابة تكرار للشعيرة الخاصة بأسطورته القديمة التي يرتبط فيها الثور بالخصب و المطر، وإدراك الشاعر لقيم هذه الخصوبة المتصلة بإله الاستسقاء كإله مقدس مجسدة في مهمته الدينية ورسائله الفحولية ومن هذا المنطلق يهدف البحث إلى الكشف عن قصة الثور الوحشي برموزها النسقية المقدسة وبقدرته على صنع المطر وإخصاب الأرض ويفسر كذلك الكشف عن الصراع القائم في قصة الثور وإمكاناته النسقية المحصورة بين القداسة و الخوف وترقب المطر.

الكلمات المفتاحية: الأسطورة؛ المقدس؛ الثور الوحشي؛ المطر؛ العصر الجاهلي.

Abstract

The features and remnants of the myth of the Wild Bull in pre-Islamic poetry have formed a comprehensive framework that defines the bull, branching into outward attributes and inner truths. These aspects revolve around the bull's ability to invoke rain, which is portrayed through a magical ritual believed to control rainfall. The poetic narrative of the bull represents a reenactment of the ritual associated to its ancient myth, where the bull is linked to fertility and rain. The poet's understanding of the values of this fertility, connected to the rain deity as a sacred entity, is reflected in the bull's religious role and its symbolic virility. This study seeks to explore the narrative of the Wild Bull, focusing on its sacred symbolic framework, its ability to bring rain, and its role in fertilizing the earth. Furthermore, it analyzes the inherent conflict in the bull's narrative, examining its symbolic potential, which oscillates between sanctity, fear, and the anticipation of rain.

Keywords: Myth; Sacred; Wild Bull; Rain; Pre-Islamic Era.

1- مقدمة

صورة الثور الوحشي في الخطاب الشعري الجاهلي شديدة التعلق بالأسطورة، تدل أن الرموز والدلالات ذات العمق الإنساني والوجودي يوظفها الشاعر الجاهلي لخلق واقع فني يلائم رؤاه واحتياجاته النفسية والاجتماعية والفكرية بأسلوب غير مباشر رامز وموح. وقد يعود خيال الشاعر إلى تاريخ الأساطير القديمة دون وعي منه، فتبدو صورة الشعراء الجاهليين أسطورية نمطية، ويتضح للمتلقي ارتباطها بفكر قديم أو عقيدة ما تتصل بالشعائر الدينية التي كانت تقام في حقبة ما من الزمن، حيث يعيد الشاعر خلق الأسطورة القديمة الحاملة للحياة الدينية التي يتمتع بها الثور الوحشي، ويصوغها مجددا في قلبه الشعري كنوع من الأدوات القوية لتعزيز نظريته المحدودة الهائلة في الكون اللامحدود، ولهذا كان لا بد أن نتساءل عن نظرة الشاعر الجاهلي وكيفية توظيفه لأسطورة الثور وقدرته على صنع المطر أو بمعنى أدق إنزاله؟ إذا نحن في النسق الحيواني للثور الوحشي بين تناقضات ومتضادات عديدة الدلالة والأوجه تصب كلها بين الصورة الأسطورية الميثيودينية للثور الوحشي كإله، وما يقابلها من أخرى واقعية معيشة له كحيوان، فأصبح الشاعر مخترعا لأسطورة لا تتولد إلا في رحم شعره من خلال نسيج مبالغ فيه، يصل بواصفه لحد الكمال، فيصبح نموذجا مرغوبا مرهوبا مفقودا في محيطه أو بيئته الصحراوية الخشنة، هو ليس فقط سلاحا أرضيا للاستسقاء أو الخصوبة، بل هو اتحاد مادي ومعنوي بين الذات الشاعرة وبين الكون والطبيعة.

2- الخلفية الأسطورية للثور الوحشي

يرى بعض الباحثين أن الشاعر إنما يشبه ناقته بالثور الوحشي إحياء لتجليات الإله القمر، وقد فسروا أحداث قصته وتواجدها في القصائد الجاهلية تفسيراً أسطوريا، يجعل الثور حيوانا مقدسا ورمزا من رموز الإله الأعلى القمر الذي عبد في مناطق كثيرة من العالم خاصة عرب الجنوب والعراق والشام، يقول علي البطل: "... كما ربطوا بين الثور الوحشي والقمر، جاعلين منه رمزا على الإله "ود" أو "سين" أو "شهر" الذي كان من صفاته أنه "كهلن" أي القدير، وأنه "أبم" أي أب. وإذا كان الثور كثير الظهور في أنساب العرب اسما لفرد أو علما على قبيلة مشيرا إلى بقايا طوطمية قديمة، تتخذ من الثور جذاً أعلى ترتبط به وتنتسب إليه، إلا أنه في المرحلة التالية – مرحلة الديانة الكوكبية – قد صار رمزا ممثلا للإله القمر، إذ وجدت في معابد القمر – جنوبي الجزيرة – صور للثور قدمها عابدو قرابين للإله أو نذورا كانت عليهم له، ولقد عرف القمر باسم ثور" (البتل، 1981، الصفحات 123-124).

فهذه الأسماء التابعة والمتصلة بالإله القمر، أو الألقاب الرامزة له في الكتابات الجاهلية التي عثر عليها في القسم الجنوبي من الجزيرة العربية، تشير للإله القمر وبصفاته وتربطه بصفة مباشرة بالثور الوحشي.

كما يشير (الرحمن، 1981، صفحة 131) إلى أن السبئيين كانوا يرمزون للقمر في كتاباتهم برأس ثور، وكانت الثيران تمثل أكثر الحيوانات التي تقدم ضحايا للإله القمر، وما يدل على تقديس

الجاهليين للثور الذي اتخذوا منه رمزا للقمر حقيقة المشابهة بين قرني الثور وبين القمر عندما يكون هلالا.

ويرى (الأنصاري و عبيات، 1983، صفحة 19) أن صورة الثور الوحشي في المعتقدات القديمة تتعدى لكونه أكثر من ممثل ورامز أرضي إلى كونه إله ومعبود، حيث يمثل إله العواصف وقد عبده السومريون وسموه "إنليل" وعبدوا البقرة إلهة معه، وقد اتحدا في زواج مقدس فاضت فيه دجلة والفرات على أرض سومر، ولهذا يرمز الثور عندهم إلى القوة والخصب، كما كان الأشوريون يلتمسون عند إلههم الثور القوة ؛لهذا وضعوا الثيران المجنحة على أبواب قصورهم حارسا راعية لهم.

وهذه الرموز أي العلامات الحيوانية البقرية " شائعة في الحضارات القديمة المحاذية للبيئة العربية، وربما تكون قد تسربت إليها، فنجد عند بعض الشعوب آلهة بشكل ثيران، كما نجد آلهات قمرية وأخرى شمسية ذوات رؤوس بقرية...ولا تظهر هذه الرموز الحيوانية إلا كبدايل ثقافية صارخة تعكس ذعر وهرب الحيوان الإنساني أمام المتحرك بشكل عام وخاصة القلق أمام كل تغيير (مرور الوقت، الطقس المتقلب، الموت، الحرب، الفيضان مرور الأيام...) " (المشهوراي، 2010، الصفحات 128-129) .

وجود قصة الثور في القصيدة الجاهلية هو بمثابة تكرار للشعيرة الخاصة بأسطورته القديمة/ الأم الأولى وخلق أسطورة أخرى مرتبطة بشكل أساس وفعال بالقصيدة الجاهلية حيث تصبح النصوص الشعرية المتعلقة بالثور ما هي إلا شعائر تمجد المقدس والنموذج الأعلى والإله المعبود (أرضيا وسماويا)/ الثور، "لذا ربطت القراءة الأسطورية كثرة توارد قصة الثور الوحشي في القصيدة الجاهلية بالأصول الميثيودينية وأطروحاتها وتصوراتها مستعينة في ذلك بالعلوم الميثيولوجية والأركولوجية والاجتماعية وحتى النفسية، منهلها في ذلك طرح "يونغ" في اللاشعور الجمعي والنماذج العليا (بلوحي، 2004، صفحة 158).

هناك مجموعة ملامح وبقايا أسطورية للثور الوحشي في القصيدة الجاهلية بصفة عامة شكلت من خلال القصة الشعرية التي يسردها الشعراء حوله نسقا كلياً - للثور- تتفرع عنه صفات ظاهرية وحقائق أخرى باطنية تعكس لنا النظام العام لحكاية هذا الحيوان في مخيلة معتقدات الجاهلي، والتي سنركز عليها في هذا البحث من خلال نسق الثور وفاعلية استمطاره. يبدو من خلال قراءتنا لقصة الثور الوحشي الذي يعاني الوحدة والخوف وترقب حدوث الأخطار والنجاة منها مرتبط أساسا بنزول الماء، فالثور أحد أشهر الرموز المطرية في القصيدة الجاهلية التي توضح بدرجة أكبر كثافة ثنائية الحياة والموت، تلك النقاط التي تلتقي فيها عوامل تمسك الثور/ الشاعر بالوجود، والعوامل المعاكسة الأخرى التي تحاول جاهدة إفناءه وقهره والسيطرة عليه.

3- نسقية الثور الأسطوري رمزا للخصب والمطر

ولهذا كان من الواجب علينا الحديث أولا عن بعض الأساطير التي تخص الثور والمطر، أو بعبارة أخرى طقوس الاستمطار ورمزية الثور كإله للمطر والرواء والخصب، كذلك قبل التطرق إلى نسقية قصته الشعرية في ثقافة العصر الجاهلي حتى يتسنى لنا بعد ذلك فصل تلك الأفكار المتداخلة الظاهر منها والباطن في القصيدة الجاهلية التي تلبسها عباءة قصة حيوانية تخرج عن الإطار البيئي الصحراوي المعتاد بالنسبة للجاهلي. أو حتى للمتلقي الآخر، القارئ للقصيدة وفق منظور نسقي لثقافة التقديس والتبجيل التي تمثل حضورا مهيمنا واضحا.

إن المغزى الديني والمعتقدي لقالب قصة الثور الوحشي "يعبر عن فكرة القدرة والفناء، ثنائية الحياة والموت، هذا من جهة، ومن جهة ثانية نلاحظ أن هذه القصة يسيطر على أحداثها زمان الليلة الماطرة، وأن الصراع بين الثور والصيد والكلاب إنما هي ملحمة ذات أصول ميثيودينية، يرتبط فيها الثور والخصب والمطر" (بلوحي، 2004، صفحة 159).

ثم إن إدراك الشاعر الجاهلي لقيم الخصوبة ومفاهيمها النابعة من المطر والتي جسدها نسق الثور/ الإله المقدس في مهمته الدينية ورسالاته الفحولية، جعلته في بحث دائم عن أصول وسنن تظهر هذا الحيوان في صورة إله مقدس وبالتعدي إلى صورته (صورة الشاعر)، لسان القبيلة المقدس الحامي لها ولأنسابها وأشرفها، كواهب (الثور/ الشاعر) لتجدد الحياة والحفاظ على استمرارها ومصدر قوتها وكيونوتها.

وكانت عبادة الثور تجسيدا أرضيا لعبادة القمر السماوي، فالقمر بمنازله المتغيرة قد ارتبط منذ زمن مبكر بطقوس الزراعة والخصب واستئزال المطر، فرأوا الهلال كقرون الثور (الشوري، 1996، صفحة 120)، والثور فيه من الإخصاب ما يحيله ليمثل معبودا قويا يتطلع له الإنسان القديم خوفا منه .

وعبر آلاف السنين استقر رمز الثور الإله أو المعبود كفكرة دينية ونسق غامض يجول بخاطر الشاعر الجاهلي في قصيدته كأنه يعيد ملحمة الدينية أو ترنيمة الإنسان القديم.

وقد تأثرت الذاكرة العربية في أسطورة ثقافة الخصب والمطر بعبادة الساميين وألهتهم، وعرف العرب الثور تحت مسمى الإله بعل رمز الخصب والمطر حيث، "يمثل الثور "بعل" في الاعتقاد الكنعاني إله خصب الحقول والمواشي الذي يمتطي السحب، ويرسل الغيث والعواصف، وله ارتباط بالآلهة ابنه البرق. و(حاداد) أكبر الآلهة الذكور في سوريا وهو إله الرعد والخصب والمطر على هيئة "ثور"، وهيكل الشمس في "بعلبك" يحوي تمثالا له، يقبض بيسراه على صاعقه وسنابل قمح، ويمثل (حاداد) في شمال "سوريا" برأس إنسان له لحية وقرنان، وهما رمز القوة والخصب. وكان "بعل" أكثر "آلهة" الفينيقيين "تبجيلا، وهو إله المطر. وتعبير الأرض التي تسقي من السماء "بعلا" الذي يجري على السنة سكان الشام أثر واضح من تلك العبادة.. وبعل كان يعد إلها وطنيا في "تدمر" وكانت عبادته استمرارا لعبادة الخصب والمطر التي كان بعل يمثلها في بلاد كنعان" (الشوري، 1996، الصفحات 119-120-121).

كما يرى (الشوري، 1996، صفحة 121) أن عبادة الثور كانت منتشرة في عصور الجاهلية الأولى الموعلة في القدم، فقد ذكر اسما إلهين هما: ديونيسوس و أورانيا، وذكر أن العرب كانوا يتعبدون لهما. وديونيسوس هذا كان إلها يونانيا يمثل الثور ويجسد صفاته في الإخصاب والنماء. ومن ألقابه: الطفل ذو القرون، والمعبود ذو القرون، والثور ذو القرون، وابن البقرة.

ولأن الجزيرة العربية بيئة صحراوية، لا تحتاج إلى شيء حاجتها إلى الماء، على حسب ما صورته قصائدهم الجاهلية في سرد قصة الثور ومروزاتها المائية المطرية، لهذا نجد معاني كلمة بعل عند (المصري، 2004، الصفحات 315-316) هو كل شجر أو زرع لا يسقى، أو ما سقته السماء و اكتفى بمائها، أو ما شرب بعروقه من الأرض فصار بعلا مستغنيا عن السقي، و قد زعم أناس أنه ذكر النخل وسموه فحلا، و قد يكون الزوج و المالك و السيد و هي معان تضم الربوبية، فبعل الشيء ربه و مالكه.

ففي اللغة العربية تحمل إشارات عبادة بعل الإلهية القديمة أصل الخصب ومصدر الحياة إلى أن صار الثور/ بعل/ صنما مجهولا في نواحي شبه الجزيرة العربية (جنوب اليمن) يعبدونه كأنه ربهم. وأشار (النويري، دس، صفحة 152) إلى أن الملوك المصريين في الحضارة الفرعونية القديمة قد عدوا أنفسهم ثيرانا، كما عدّوا الثور إلها؛ حيث نجد في بعض الأساطير أن سبب ملك فرعون هو حوار دار بينه وبين إبليس، وقد نصحه هذا الأخير باتخاذة إلها يعبدونه دون سواه ويكون ثورا من ذهب فوافق فرعون على طلبه.

ويرى (الشوري، 1996، الصفحات 120-121) الثور رمزا للحب و سموه (أبيس) و (الثور القدير) و(ثور السماوات)، وما أساطير خصوبة أبيس/ الإله الثور، إلا رمزا قويا لخصوبة وفيضان النيل العظيم.

4- الطقس النسقي للاستمطار

يتصل جزء من الأساطير الطقوسية الخاصة بالثور المقدس وعبادته أو التوسل إليه مباشرة بالسحر والتأثر به لما له من تعويذات خاصة ذات تفاصيل قوية تضمن لصاحبها منطلقا أسطوريا يمكنه من بلوغ الاستسقاء عن طريق معبوده الذي يتحول في هذه الطقوس إلى الإله الضحية أو المقدس المدنس الذي يطهره بالنار والحرق.

وقد أبرز (الشوري، 1996، الصفحات 121-122) فكرة الحرق هذه، حيث كانت بعض القبائل تحرق معدة أحد الثيران عند حلول المساء؛ لأن الدخان الأسود يجمع السحب وسبب المطر، كما نجد قبائل أخرى تقدم قربانا للمطر يتألف من أحد الثيران السود، في حين طقوس بعض الجماعات القبلية تعتمد على حشو جلد الثور بالبذور الزراعية، وتمزق جلده ليتدفق منه الحب فيمطرون.

أ- موت البقر

يرى (البطل، 1981، صفحة 131) أن هذا التضارب — الذي هو طبيعي في منطق الأسطورة — يظهر في ممارسة سحرية للتحكم في المطر.

يقول الجاحظ في طقوس استمطار العرب: " .. فإنهم كانوا إذا تتابعت عليهم الأزمات وركد عليهم البلاء، واشتد الجذب، واحتاجوا إلى الاستمطار، اجتمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر ثم عقدوا في أذنابها وبين عراقيبها، السلع والعشر، ثم صعدوا بها في جبل وعر، وأشعلوا فيها النيران وضجوا بالدعاء والتضرع. فكانوا يرون أن ذلك من أسباب السقيا" (الجاحظ، 1965، صفحة 466).

وما افتعال العرب لمشهد الاستمطار هذا أو رغبتهم في حدوث المطر، إلا افتعال لمجموعة دلالات وإشارات ورموز أسطورية في مشهد تمثيلي لظاهرة طبيعية، تخرجها ثقافتهم المقدسة إلى حيز القدرة السحرية العجيبة في استنزال الماء من السماء، "حيث يمثل الدخان تراكم السحاب، وألسنة النار تمثل البرق، وهبوط الأبقار يشير إلى التفاؤل نتيجة هذا الطقس، وهي هطول المطر استجابة للصلاة، والواسطة الإلهية هي البقر والثيران الوحشية التي يؤديها الطقس، كما تعتدي السحب على القمر عند تراكمها وحجبها إياه. وكما أن هذا الطقس وسيلة سحرية دينية للاستمطار، فهو أيضا تمثيل لقصة أسطورية تشير إلى علاقة القمر بهذه الظاهرة الطبيعية التي تؤثر فيها وتؤثر فيه لذلك يمكن استدعاؤها بهذا التمثيل الشعائري" (البطل، 1981، صفحة 131).

فالطقوس لا تتكرر ولا تستمر إلا لوجود منا يشاهد ويرى هذا المشهد التمثيلي الصارخ بمشاعر ورغبات ممثليه وثقافة معتقديه في شكل ثغرات مختلفة من السياقات والنطاقات باختلاف القبائل والمرجعيات.

وقد زعم (الأسدي، 1994، الصفحات 157-158) أن "بشر بن أبي خازم الأسدي" خرج في سنة مجدبة حيث صادف قطيعا من البقر و الأروى، فذرعت منه، فركبت جبلا وعرا ليس له منفذ، فلما نظر إليها قام على شعب من الجبل، وأخرج قوسه، وجعل يشير إليها كأنه يرميها، فجعلت تلقي أنفسها من أعلى الجبل فتتكسر، وجعل يقول الأبيات.. فخرج إلى قومه، ودعاهم إليها فأصابوا من اللحم ما انتعشوا به.

يقول بشر في هذه الأبيات (الأسدي، 1994، الصفحات 157-158):

تَتَابَعِي بَقْرًا، تَتَابَعِي بَقْرًا
أَنْتِ الَّذِي تَصْنَعُ مَا لَمْ يُصْنَعْ
أَنْتِ حَطَطْتَ مِنْ ذُرَى مُقَنَّعٍ
كُلُّ شَبُوبٍ لَهَقَ مُؤَلَّعٍ

ولاحظ (الشوري، 1996، صفحة 123) أن قصة بشر بن أبي خازم هذه تشير إلى طقوس الشعراء في قذف البقر من قمم الجبال، فهي عادة أسطورية قديمة تحمل النظرة النفعية المحضة نحو الآلهة، ولهذا يصعدون البقر إلى الجبال حيث تسمع الآلهة توسلاتهم وشكواهم، ويبتهلون، وهم يختارون جهة الغرب دون الجهات الأخرى؛ لأن السحب تتور من تلك الجهة، فإذا لم تستجب الآلهة لتوسلاتهم أشعلوا بين عراقيبها النيران كي تأتي بالمطر فتطفئ النيران ويذهب الجفاف والقحط، وإن لم تأت بالمطر فهي تستحق ذلك المصير البشع.

يقول أمية بن أبي الصلت (الصلت، دس، الصفحات 44-45):

سَنَةُ أَرْمَةُ تُخِيلُ بِاللَّاسِ
إِذْ يَسْفُونَ بِالْدَقِيقِ وَكَائُوا
وَيَسُوقُونَ بَاقِرًا يُطَرَّدُ لِسَهْلٍ
عَاقِدِينَ النِّيرَانَ فِي شِكْرِ الْأَذَى
فَاشْتَوَتْ كُلُّهَا فَهَاجَ عَلَيْهِمْ
فَرَّاهَا إِلَهُ تَرْسُمُ بِالْقَطْرِ
فَسَقَاهَا نَشَاصَهُ وَكَفَّ النَّبْتَ
سِلْعُ مَا وَمِثْلُهُ؟ عَشْرُ مَا
تَرَى لِلْعَصَاةِ فِيهَا صَرِيرًا
قَبْلُ لَا يَأْكُلُونَ شَيْئًا فَطِيرًا
مَهَازِيلَ خَشْيَةٍ أَنْ يَبُورًا
ثَابِ عَمْدًا لِكَيْ تَهِيَجُ الْبُحُورًا
ثُمَّ هَاجَتْ إِلَى صُبِيرٍ صُبِيرًا
وَأَمْسَى جَنَابَهُمْ مَمْطُورًا
مِثْلُهُ إِذَا وَادَعُوهُ الْكَبِيرُ
عَائِلُ مَا وَعَالَتْ الْبَيْتُورًا

تسجل هذه الأبيات أسطورة الاستمطار بطقوسها وشعائرها من البداية حيث كان الناس من شدة القحط يعضغون الشجر الشائك فيسمع من تحت أسنانهم مثل الصرير، فيلجأون إلى مجموعة من البقر حيث يسوقونهم في حبل خشية أن يهلكوا، عاقدين النيران في أذنانهم كي تبعث الأمطار، فلما يرى الإله ذلك المشهد (البقر والنار) يكثر ويجمع السحاب عليهم يوما وليلة فهو ثابت لا يبرح حتى يطر عليهم الماء من السماء، وبذلك يكونون قد صالحوا الإله على ترك الذنب أو الشر الكبير، كما أنه (الإله/ القمر/ الثور أو البقر) يثقلهم بالخير والعتاء.

وفي هذا السياق أيضا أنشد القحزمي (وهو الوليد بن هشام بن قحزم) (الصلت، دس، صفحة 486) للورل الطائي:

لَا دُرَّ رَجَالٍ خَابَ سَعْيُهُمْ
أَجَاعِلُ أَثْتٍ بَيَقُورًا مُسْلَعَةً
يَسْتَمْطِرُونَ لَدَى الْأَرْمَاتِ بِالْعَشْرِ
ذَرِيعَةً لَكَ بَيْنَ اللَّهِ وَالْمَطَرِ

ب - ضرب الثور

قد ذكر (الحوفي، دس، صفحة 503) أن العرب إذا أوردوا البقر فلم تشرب إما لكدر الماء، أو لقلة العطش ضربوا الثور ليقطم الماء. وقد علل الجاحظ ذلك قال: "لأن البقر تتبعه كما تتبع الشول الفحل، وكما تتبع أتن الوحش الحمار" (الجاحظ، 1965، صفحة 18).

قال ذلك عوف بن الخرع (الجاحظ، 1965، صفحة 18):

تَمَنَّتْ طِيءٌ جَهْلًا وَجَبْنًا
هَجَوْنِي أَنْ هَجَوْتُ جِبَالَ سَلَمَى
وَقَدْ خَالَيْتُهُمْ فَأَبَوْا خِلَافِي
كَضَرْبِ الثَّوْرِ لِلْبَقْرِ الظَّمَاءِ

وقال في ذلك أيضا أنس بن مدرك (الجاحظ، 1965، صفحة 18) في قتله سليك بن السلكة:

إِنِّي وَقَتْلِي سُلَيْكًا ثُمَّ أَعْقَلُهُ
أَنْفَتُ لِلْمَرْءِ إِذَا نِيكَتَ خِلَافَتَهُ
كَالثَّوْرِ يُضْرَبُ لَمَّا غَافَتِ الْبَقَرُ
وَأَنْ يُشَدَّ عَلَى وَجَعَائِهَا النَّفَرُ

قال في ذلك الأعشى (الأعشى، دس، صفحة 147):

وَإِنِّي وَمَا كَلَفْتُمُونِي وَرَبُّكُمْ
لِكَالثَّوْرِ وَالْجَنَى يُضْرَبُ ظَهْرُهُ
لِيَعْلَمَ مَنْ أَمْسَى أَعَقَ وَأَخْرَبَا
وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ غَافَتِ الْمَاءُ مَشْرَبَا
وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ غَافَتِ الْمَاءُ بَاقِرُ
وَمَا إِنْ تَعَافَى الْمَاءُ إِلَّا لِيُضْرَبَا

ومعنى هذه الأبيات: فليعلم هذا الذي أمسى في غضبه أعق الناس للقرابة والنسب أن مثلي ومثلكم فيما تكلفوني من ذنوب لا يدلي فيها، كمثل الثور يضرب الراعي ظهره حين تعاف البقر الماء، ليدفعه إلى الحوض فتقبل بإقباله.

ويعلق أحد الباحثين على هذه الظاهرة أو الموقف السلبي إتجاه الثور (واتخاذة مثلا بديلا) عند كلا الشاعريين فيقول: "وهو مثل قائم على الظلم وعدم المنطق، فما فعله أصحاب الأعشى به، وما فعله أنس بن مدركة بالسليك ظلم فادح تأتي فداحته من مخالفته للعقل والتفكير السليم. ولم يرد أنس أن ما فعله هو الحق لأنه امتداد منطقي لإيمانه بأسطورة الثور والبقر، بل هو على نقيض ذلك يعترف بأنه ظلم ومخالف للمنطق. ولم يزد الأعشى أن يرى أصحابه، ولو كان مؤمنا بالأسطورة المذكورة الرأي في فعلهم امتدادا منطقيا لهذه الأسطورة لأنه متجانس معها. ولكن الحال على غير ذلك، فأنس بن مدركة يعترف والأعشى يتهم. وفي هذا الذي سبق ما يدل دلالة قاطعة على موقف الشعراء ومن ورائهم المجتمع من هذه الأسطورة. إنها مثل لسوء الفهم والتصرف والحكم" (رومية، دس، صفحة 4).

إلا أننا لا نسلط بقعة الضوء على الجانب الواضح من هذه الأسطورة فقط، بل نمتمد إلى خفاياها وأسرارها كتلك التي أشار إليها الأعشى في أبياته السابقة كون فعل الضرب يحتمل القصدية، فالثور لا يضرب لأن البقر عافت الماء، بل كأنها عافته ليضرب هو، وللتصاعد الدلالة النسقية وتتعارض أكثر نجد إشارة بعض الشعراء إلى دعر البقر من الماء، وإلى ضرب الثور الغير مستعص عن الورود. إذن فهل هناك من سبب وداع يفسر هذا الورود أو عدمه أو الضرب أو سببه؟

قال يحيى بن منصور الذهلي (الجاحظ، 1965، صفحة 19):

لَكَالْثَوْرُ وَالْجَنَى يُضْرَبُ وَجْهَهُ وَمَا ذَنْبُهُ إِذَا كَانَتْ الْجَنُّ ظَالِمَةً

ويقول الهيبان الفهمي (الجاحظ، 1965، صفحة 18):

كَمَا ضَرَبْتَ الْيَعْسُوبَ أَنْ عَافَ بَاقِرٌ وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتْ الْمَاءُ بَاقِرٌ

ويشير (الحوفي، دس، صفحة 504) إلى أنه لما احتل الثور مكانة عالية بكونه أمير البقر أصبحت البقر تطيعه كطاعة إناث النحل لليعسوب، لهذا سمي بأمير النحل.

يقول نهشل بن حري (البحثري، 2009، صفحة 182):

أَتَتْرُكُ عَارِضَ وَبَثُو عُدِي وَتَعْرِمُ دَارِمَ وَهُمْ بَرَاءُ
كَذَلِكَ يُضْرَبُ الثَّوْرُ الْمَعْنَى إِذَا مَا عَافَتْ الْبَقَرُ الظَّمَاءُ

يقول النابغة الذبياني (البحثري، 2009، صفحة 181):

أَتَتْرُكُ مَعْشَرًا قَتَلُوا هَذِيلاً وَتَعْقُبُنِي بِمَا فَعَلْتُ جُدَامُ
كَذَلِكَ يُضْرَبُ الثَّوْرُ الْمَعْنَى إِذَا مَا عَافَتْ الْبَقَرُ الْحَيَامُ

إن هاته الأبيات الشعرية تظهر تفاعلا وتقاطعا مع أنظمة المجتمع القبلي الجاهلي من جهة، وتعتقداته الفكرية الأسطورية من جهة أخرى، فكلا الشاعرين (يحيى بن منصور الذهلي والهيبان الفهمي) يشيران إلى سلطة الجن على الثيران. حيث يرى (الحوفي، دس، الصفحات 504-505) على

حسب ما يقال إن الجن هي التي تصد الثيران عن الماء، لتمسك البقر عن الشرب حتى تهلك، وقريب من هذا التعليل رؤية بعض الباحثين في أن البقر إذا امتنعت من شرب الماء لا تضرب؛ لأنها ذات لبن وإنما يضرب الثور لتفزع هي فتشرب.

ويشير (الشوري، 1996، صفحة 169) أن الثور معناه الطحلب، لأن البقار إذا أورد القطعة من البقر فعافت الماء وصدها عنه الطحلب، ضربه ليفحص عن الماء فتشربه. كما يشير (حسن، 1998، صفحة 71) بل زعموا أن البقر — شأنها شأن إناث الحيوان مع ذكرانه — تقتدي بالثور وتحاكيه، فإذا أورد الماء وردت معه.

نلاحظ في هذه الأسطورة (ضرب الثور لتشرب البقر) تناقضا كبيرا ومغلاة في التفسير والتعليل ولكن هذا ليس بالغريب عن عالم الأسطورة وما تشمله من عجائب وأشياء خارقة للعادة.. فضرب الثور في ظاهر الأسطورة ليس نوعا من أنواع الظلم له أبدا، بل هو حل معقول ومقبول حتى تشرب البقر، أما في باطن ثقافة الشاعر يتحول ذلك الفعل السابق إلى ظلم كبير للشاعر يترجمه وكأنه انتقل من الثور الذي يؤخذ بذنب غيره (البقر لا تريد أن تشرب ما ذنبه هو في ذلك) مع أنه وكما سبق الذكر لم يكن من قبل يعاب على ضرب الثور، ولكن أصبح الآن مثالا قاسيا للظلم. بل إنه " ليس ضرب الثور من قبيل ضرب القوي ليهاب الضعيف، كما علل الجاحظ، وإنما هذه إشارة لطقس سحري قديم، مارسه الإنسان الجاهلي في حيواناته، ولا شك أن هذا الطقس له علاقة بالسقيا والإرواء والإخصاب، وربما كان ابتداء الثور بالشرب إغراء له لكي ينزل المطر أو تكريما لصانع المطر الذي كانت الغدران من فعله ونتائجه، أو تذكيرا له بعواقب الجفاف والجذب: الإهانة والحرق بالنار... ولهذا أحيانا نراه معنيا بترقب المطر وتأمل الماء والتفكر بمشكلات الجفاف، فالثور يشم البرق ليتعرف على مساقط المطر (الشوري، 1996، الصفحات 124-126).

وتتضح هذه النظرة أو الهالة الأسطورية أكثر مع زهير بن أبي سلمى، يقول الشاعر (سلمى، 1988، صفحة 75):

فَسَارَ مِنْهَا عَلَى شَيْمٍ، يَوْمٌ بِهَا جَبَبِي عَمَائَةً، فَالْرَّكَاءَ فَالْعُمَقَا

ويقول أيضا (سلمى، 1988، صفحة 14):

يَشْمَنَ بُرُوقَهُ وَيَرْشُ أَرِيَّ الْ جُثُوبٍ عَلَى حَوَاجِبِهَا الْعَمَاءُ

وبهذا تتحول كل التأثيرات والإثارات، فقد كان ضرب الثور ليس إلا تكملة للأسطورة القديمة العظيمة؛ أسطورة الثور رمز الإله القمر، فهي لم تكن أبدا وفي الأساس منفصلة عن الأسطورة الأم (المطر والإرواء والاستمطار).. ولهذا كان تفسير الشاعر لها سطحيا بسيطا، لم يأخذ إلا بشكلها (ضرب الثور) الذي اعتبره ظلما للثور، وبالتالي ظلم للشاعر، ولكنه في حقيقة الأمر، ووفق هذا الرأي هي طقوس للإله الثور؛ رمز من رموز الإله السماوي القمر من أجل الاستمطار، وهي القوة الأولى الجبارة التي عرف بها الثور لإله ورمز. فصائد مرة أخرى ثنائية الحياة والموت، فشرب الثور الذي هو في الأصل طقوس للاستمطار والإرواء هي ما يمثله المطر الذي هو حياة للناس، وضرب الثور الممارس ما هو إلا ظلم وإهانة لهذا الإله الثور، فالشاعر يتعجب من ضربه ليس لأن فيه إهانة

وظلما فقط للحيوان، إنما هو في باطن الأمر وحقيقته هو إهانة لهذا الرمز المعبود الأرضي الثور الذي هو مسؤول عن إنزال المطر والتحكم في الرياح والسحب.

ويرى (الشوري، 1996، صفحة 124) أن عادة استسقاء العرب بالبقر ما هي إلا من مخلفات عبادة الثور، وما يرمز إليه من الخصب والمطر، ويبدو أن النار المضرة في حطب السلع والعشر إنما هي تطور لطقوس واحتفالات قديمة تتصل بهذا الإله الثور، والثور يوقد لنا النار ويشعلها، والنار ترتبط بالثور ارتباطا أساسيا في طقوس الاستسقاء .

قال أوس بن حجر في تشبيهه بلهب النار (حجر، 1979، صفحة 75):

وَائْقُصْ كَالدَّرِيِّ يَتَّبَعُهُ تَقَعُ يَثُورَ تَحَالُهُ طُنْبًا
يَخْفَى وَأَحْيَاءُ يَلُوحُ كَمَا رَفَعَ الْمُنِيرُ بِكَفِّهِ لَهَبًا

وقال النابغة الذبياني (الذبياني، 2005، صفحة 104) مشبها ثوره الوحشي، ذاكر الفعل (تنحي) الذي يعني الحرق:

مَوْلِي الرِّيحِ رَوْقِيهِ وَجَبْهَتُهُ، كَالهَبْرِقِيِّ تَنْحِي يَنْفُخُ الْفَحْمَا
وأخذ الثور في تصور امرئ القيس شكل النار، قال (القيس، 2004، صفحة 111):

فَأَذْبَرَ يَكْسُوها الرِّغَامَ كَأَنَّهُ عَلَى الصَّمَدِ وَالْأَكَامِ جَذْوَةٌ مُقْبِسِ
ويقول ضابئ بن الحارث البرجمي (الأصمعي، دس، صفحة 183) أيضا في ثوره الذي يأخذ شكل النار:

شَدِيدَ سَوَادِ الْحَاجِبَيْنِ كَأَنَّمَا أَسِفُ صَلَى نَارَ فَأَصْبَحَ أَكْخَلَا
ويصف لبيد بن ربيعة الثور بأن الكلاب تلمع في عراقبيه كالفتيلة الموقدة يقول (ربيعة، 1993، صفحة 138):

فَجَالَ وَلَمْ يَعْجَمْ لِعُضْفٍ كَأَنَّمَا دَقَّاقُ الشَّعِيلِ يَبْتَدِرْنَ الْجَعَائِلَا

من اللافت للنظر في تشبيهات الثور الوحشي المتصلة بـ إله الاستسقاء وتحقق اليقينية في استنزال المطر من خلال البرق أو النار اللذين يعدان أهم أدوات إثبات حرق البقر كدلالة مستترة لمنطق الثور / الإله، منطق الطبيعة وحرق البقر.

إن طقوس الاستسقاء في نسق الثور الوحشي، ذلك الإله صانع المطر أو الذي يتضمن وجود كل ما يعبر عن الماء، وعلى حسب الشعر الجاهلي فإن ارتباط طقوس الاستسقاء في جزء منها له صلة بالنار والحرق كما سبق ذكره في هذا الفصل، وهنا تتضح لنا مجموعة من الأفكار المتداخلة ومجموعة من الأسئلة المبهمة: كيف اعتبر أولا الثور هو السبب الرئيس والمسؤول عن إنزال المطر أي أن الجاهليين كفكر يعتمدون عليه بالدرجة الأولى ثم تتحول فجأة تلك الفكرة إلى أخرى وتصبح النار والحرق هما المسؤولان عن إنزال ذلك المطر إذن ما دور الثور هنا؟.. وكيف يكون الماء /المطر عكس النار/الحرق ويؤديان معا الدور نفسه؟! إن الجاهليين يقومون بطقوس الحرق (حرق البقر) حتى يسقط المطر والثور يشعل النار حتى يسقط المطر.. الأولى ترمز إلى الموت للبقر، والثانية تعبر عن الحياة للثور.

5- نسق الثور المتعبد المتوجس

إن الرمز المائي يكرر نفسه في الشعر الجاهلي من خلال سرد قصة الثور الخائف المتوجس الذي يعدّ عنصرا نسقيا حاسما في طريقة فهمنا للجانب الديني لحياة هذا المقدس والعالم الإلهي، حيث يعد الثور صانع المطر من خلال تلك التراتيل والصلوات التي يقتضي بها نذورا أو كأنه يفعل ذلك.

وتحفل قصة الثور الوحشي برموزها النسقية المقدسة بقدرته" على صنع المطر وإخصاب الأرض، وربما كانت هذه الرموز ترانيم طقوسية تتلى في معابد الإله "بعل" غير أن هذه الطقوس اندثرت باندثار ذلك الدين القديم. واحتفظ الشعر الجاهلي بإشارات قليلة تدل على شعائر كبيرة كانت تقام تمجيدا للثور" (الشوري، 1996، صفحة 128) .

ولا شك في أن هناك دلالة ما يشير بها الشاعر والقصيدة الجاهلية والأسطورة القديمة للثور المبجل، وتبرهن وتفسر الصراع القائم للثور وإمكاناته النسقية المحصورة بين القداسة والخوف. ويشعر بعض الشعراء في الكشف عن هذه الممارسة التعبدية للثور، كما نلاحظ عند بشر بن أبي خازم الأسدي الذي يقول (الأسدي، 1994، صفحة 53):

كَأَنَّهَا بَعْدَمَا طَالَ الْوَجِيفُ بِهَا	مِنْ وَحْشٍ خُبَّةٌ مُوشِيٌ الشَّوَى فَرْدُ
طَاوٍ بِرَمْلَةٍ أَوْ زَالَ تَضَيَّفَهُ	إِلَى الْكَنَاسِ عَشِيٌّ بَارِدٌ صَرْدُ
فَبَاتَ فِي حَقْفٍ أَرْطَاةٍ يَلُودُ بِهَا	كَأَنَّهُ فِي ذُرَاهَا كَوَكَبٌ يَقْدُ
يَجْرِي الرَّدَاذُ عَلَيْهِ وَهُوَ مُنْكَرَسٌ	كَمَا اسْتَكَانَ لِشَكْوَى عَيْنِهِ الرَّمْدُ
بَاتَتْ لَهُ الْعَقْرَبُ الْأُولَى يَنْثَرَّتْهَا	وَبَلُّهُ مِنْ طُلُوعِ الْجَبْهَةِ الْأَسْدُ

ويقول أيضا (الأسدي، 1994، الصفحات 70-71):

بِأَدْمَاءٍ مِنْ سِرِّ الْمَهَارَى كَأَنَّهَا	بَحْرَبَةٌ مُوشِيٌ الْقَوَائِمِ مُقْفِرُ
فَبَاتَتْ عَلَيْهِ لَيْلَةٌ رَجِيَّةٌ	ثَكْفُهُ رِيحٌ خَرِيقٌ وَثَمَطُ رُ
وَبَاتَ مُكَبًّا بِرَوْقٍ هـ	وَأَرْطَاةٍ حَقْفٍ خَانَهَا النَّبْتُ يَخْفِرُ
يُثِيرُ وَيُبْدِي عَنْ غُرُوقٍ كَأَنَّهَا	أَعْتَهُ خَرَّازٌ ثَحَطٌ وَثُبْشِرُ
فَأَضْحَى وَصَبَّابُ الصَّقِيعِ كَأَنَّهَا	جُمَانُ بَضَاجِي مَثْنِهِ يَتَحَدَّرُ

ويقول الأعشى الكبير (الأعشى، دس، صفحة 311):

كَأَنَّهَا طَاوٍ تَضَيَّفَهُ هـ	ضَرْبُ قِطَارٍ تَحْتَهُ شَمُّ أَلُ
بَاتَ يَقُولُ بِالْكَتِيبِ مِنَ الْـ	غَبِيَّةٌ: أَصْبَحَ لَيْلُ، لَوْ يَفْعَلُ
مُنْكَرَسًا تَحْتَ الْعُصُونِ كَمَا	أَخْنَى عَلَى شِمَالِهِ الصَّنِيقُلُ

ويقول أيضا (الأعشى، دس، الصفحات 393-395):

كَأَنَّ كُورِي وَمَيْسَادِي وَمَيْثَرَتِي	كَسَوْتَهَا أَسْفَعَ الْخَدَّيْنِ عِبَابَا
الْجَاهُ قَطْرٌ وَشَفَانٌ لِمَرَّتْكُمْ	مِنْ الْأَمِيلِ عَلَيْهِ الْبَعْرُ إِكْتَابَا

وَبَاتَ فِي دَفِّ أَرْطَاةٍ يَلُودُ بِهَا يَجْرِي الرَّبَابُ عَلَى مَتْنِيهِ تَسْكَابًا
يَجْلُو الْبَوَارِقُ عَنْ طَيَّانٍ مُضْطَمِّرٍ تَخَالُهُ كَوَكَبًا فِي الْأَفْقِ ثَقَابًا
ويقول ضابئ بن حارث البرجمي (الأصمعي، دس، الصفحات 182-183):
فَبَاتَ إِلَى أَرْطَاةٍ حَقْفٍ تَلْفُئُهُ شَامِيَّةٌ تُذْرِي الْجَمَانَ الْمُفْصَلَا
يُؤَائِلُ مِنْ وَطْفَاءٍ لَمْ يَرِ لَيْلَةً أَشَدُّ أَدَى مِنْهَا عَلَيْهِ وَأَطْوَلَا
وَبَاتَ وَبَاتَ السَّارِيَاتُ يُضِفُّنَهُ إِلَى نَعَجٍ مِنْ ضَائِنِ الرَّمْلِ أَهْيَلَا
شَدِيدٍ سَوَادٍ الْحَاجِبَيْنِ كَأَنَّمَا آسِفٌ صَلَّى نَارًا فَأَصْبَحَ أَكْهَلَا

فبشر بن أبي خازم يصف ثوره الوحشي الأبيض المنفرد وكيف اتخذ من الأرتاة كناسا له بكوكب مضيء، وأصبح يستقبل المطر الخفيف المتساقط عليه كما يستقبل المصاب بالرمد آلامه، ثم تعاقبت الأمطار عليه بقوة، فقد مرت على هذا الثور ليلة باردة هبت الريح فيها قوة شديدة، ثم راح يقشر الشجرة فتبدو قشورها كالجلود التي يقدها الخزار، ثم إن ما سقط من الندى تجمد جلد الثور وبدا كحبوب اللؤلؤ.. أما بالنسبة للأعشى فثوره ضامر قد أهز له الجوع، فاجأه مطر تسوقه ريح الشمال، فبات ليلته فوق تل من الرمال، وقد اندس تحت أغصان الشجر، منكبا على وجهه، كأنه صقيل قد أكب على شخذ السيوف كلما اشتد هجوم المطر واندفاعه صاح (أصبح ليل!) ولكن الليل ثقيل بطيء لا يكاد ينقضي، وكذلك أشجار الأرتي الضخام لا تكاد تحميه، وراح المطر يجري على جنبه. ويلتعم البرق في السماء، فيكشف ضوءه اللامع عن هذا الثور الضامر وقد أنهكه الجوع، كأنه كوكب يلمع في الأفق البعيد.. وبالنسبة للضابئ بن الحارث فثوره التجأ كذلك إلى أرتاة بعد أن سقط عليه المطر، وقد شبه قطرانها بحب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ أو هو كذلك بالضبط، وقد بات في ليلة طويلة صعبة يلتمس فيها الملجأ ويطلب النجاة.

من قبل كانت صورة الثور المتعبد واضحة للغاية؛ لكونه يتلو صلوات من أجل إنزال المطر، أما الآن اختلفت قليلا الدلالة عند بشر بن أبي خازم فثوره راح يحفر بقرنيه كناسا له في أصل أرتاة يتقي بها من تلك الليلة الباردة الماطرة.. وكما يبدو من هذه الصورة التقريبية عند معظم شعراء الجاهلية أن الثور خائف مترقب ليس متعبدا راهبا، إنما حيوانا /شاعرا ضعيفا خائفا من المطر في حد ذاته ويبدو ذلك الخوف خاصة بعد سقوط المطر الذي جعله يختبئ في تلك الأرتى وكأن المطر من يحميه ويظهره ويبقي فيه الأمان، وليس وكأنه شخصيا الإله الصانع له.

يقول مصطفى عبد الشافي الشوري في ذلك: "نزول المطر يبدو أحيانا نتيجة لتوسلات الثور وتضرعه ترقبه وصلواته، وعلى الرغم من احتماء الثور بالأرتى، فإن المطر يغمره غسلا، كأنما يريد الطهر والنقاء والصفاء" (الشوري، 1996، صفحة 117).

وندعم هذا القول بالصورة المتكررة مرارا في الشعر الجاهلي كون الثور عبارة عن متعبد أو قاضي نذور أو قديس أو راهب. يقول امرؤ القيس (القيس، 2004، صفحة 111):

فَأَذْرَكْنُهُ يَأْخُذْنَ بِالسَّاقِ وَالنَّسَا كَمَا شَبْرَقَ الْوَلْدَانُ ثَوْبَ الْمُقَدَّسِ
وَعَوْرَنَ فِي ظِلِّ الْعَصَا وَتَرْكَنَهُ كَقَرَمِ الْهَجَانِ الْفَادِرِ الْمُتَشَمِّسِ

هذان البيتان لهما دلالة واضحة على قدسية الثور، ليس لأنه متعبد فقط، بل إن ورود كلمة المقدس تدل بصفة مباشرة على الراهب وما فيها من تصريح بالتقديس.

تعلق إحدى الباحثات (عوض، 1992، الصفحات 294-295) على هذين البيتين بقولها: "تتفق الصورة الشعرية عن رموز أسطورية تربط صورة الثور هذه برمز الثور في أساطير الحضارات القديمة. فمهاجمة الكلاب للثور وهي لا تعلو فوق ساقه لسموه ومنعته، يشبهها بتبرك الصبيان بثوب راهب يأتي إلى بيت المقدس، فيجتمع حوله الأولاد يخرقون ثوبه تمسحا والتماسا للبركة. هذه الصورة إضافة إلى ما تبينه من ضعف مهاجمة الكلاب، التي تكاد لا تصل إلى الثور، كأنها لا تطول منه سوى القشور، الثوب دون الجسد، هذه الصورة تبرز رمز القداسة وتجلل الثور بها".

فالأطفال يتمسحون ويتبركون بثوب قديس متعبد يملك قوى روحية كبرى تدمهم بالحياة وتمنحهم الاطمئنان والراحة فحتى الكلاب رجعت عنه لقوته ونشاطه.

ويرى (ناصف، 1981، الصفحات 108-109) أن ثور الوحش هذا يصبح كالراهب أو راهبا ؛ فتكوينه الأساسي نقي إلى حد بعيد، إلا أن عزلته عن الناس لا تنجيه من الصراع، لأن الراهب الذي يميز الأطفال نيابه هو ثور الوحش الذي تعتدي عليه الكلاب، فيكون هذا العدوان جزءا من طقوس جليلة مقدسة يتعرض لها هذا الحيوان المفترى عليه.

إذا كيف نفسر بروز الثور في القصيدة الجاهلية خائفا؟؟ كيف يمكن لصانع المطر (الثور) أن يخاف مما هو رمز له (رمز المطر والاستسقاء) فحسب الأسطورة القديمة نرجح التفسير أو التأويل الأول الذي يتوصل فيه الثور بصلواته حتى ينزل المطر، فهي طقوس بطريقة ما للاستمطار. ولكن على حسب التفسير حيث يكون المطر وسيلة لتطهير الثور، مم؟ وهو الإله الذي لا يمكن أن تطاله الذنوب ولا المعاصي؟ ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يعتريه الخوف أو الفزع؟ إذن هنا تصبح كل الصفات تلحق الشاعر وليس الثور، لأنه هو من يخطئ ويخاف وهو من يحتمل وقوع التطهير عليه، وربما يكون في الأصل توسل الثور للاستمطار ما هو إلا توسل الشاعر طلبا للغفران، ولما كان الماء رمزا من رموز التطهير وكانت حتى النار كذلك كمثال التطهير في بعض الثقافات القديمة، لذا ربطهما الشاعر في طقوس الاستسقاء والاستمطار كوسيلة يتحكم فيه من هو خائف منها تماما كذلك الشاعر الخائف الضعيف الذي هو في الوقت نفسه فخر للقبيلة، الحامي لأعراضها والحافظ لأنسابها، هنا نجد الكثير من المتشابهات والمتناقضات في الصورة نفسها التي تجمع بين الشاعر وقناعه (الثور) أو الشاعر وإلهه (صانع المطر) فالمطر بالنسبة للثور في القصيدة الجاهلية يمثل له الموت، أما بالنسبة للشاعر فهو يمثل له الحياة (التطهير).

يقول مصطفى ناصف: "وليس هناك شك إذا نظرنا في أساطير العرب في العصر الجاهلي - في أن الناقة لم تكن مجرد حيوان - إن العالم أو المتحضر قد ينظر بعقله ولكن الشعراء - خاصة - يحتضنون الأشياء بخيالهم وحواسهم، أعني أن الناقة كانت حيوانا مقدسا في بعض الأحيان. وكانت - لذلك كله - صورة الراهب الأسير الذي يأتي الناس بقبس من النار فيعترض أطفال الأرض - كانت هي نفسها صورة الناقة العظيمة التي تتعرض للحرب. فالحرب في كل مكان من الشعر الجاهلي ولذلك ينبغي أن نقول إن ما يسمى استطرادا من الناقة إلى ثور الوحش هو محاولة استطلاع ما

يجري في عقل الناقة ونفسها. وما في عقل الناقة هو الأسر، وهو بناء بيت، وهو غرس الشجرة، وهو حلم الشروق، وهو المطر. ولكن ينبغي أن تخوض الناقة من أجل ذلك كله الحرب. فالحرب في هذه الحال كأنها عنصر ضروري لحياة الناقة وهي أشبه بطقوس التطهير المقدس التي ترفعها إلى رتبة الولي المقرب" (ناصف، 1981، صفحة 109).

هنا يمكن الإجابة عن السؤال السابق كيف يكون الثور رمزا للمطر/ الماء والنار/الحرق، في الوقت ذاته؟ هو تماما كما يكون رمزا للتطهير/ الحياة ورمزا للحرب/ الموت فلا يمكن للثور أن يتوسل لسقوط المطر دون أن يكون خائفا وحيدا، ولا يمكن له أن ينزل المطر السابقة احتياجه لطقوس الحرق والنار دون أن يظهر الثور الملتهب.

فقد رمز الثور دائما للحكمة والقوة معا، ويشير (السيف، 2009، صفحة 144) أن هروب الثور من الكلاب سلوك الحكمة بتجنب القتال من قبل من ملك القدرة على خوضها، لاسيما أنه صور بأنه إله الحرب، وعندما اضطرت الكلاب للمنازلة قرر المواجهة وانتصر عليها. فهو مثال سام للرجل الجاهلي الذي يجمع بين القوة والحكمة. وربما كان هروب الثور من الكلاب ليبتعد عن الصائد ويستتر بالظلام في مواجهة خصومه؛ فيكون قد جمع الحكمة والقوة والذكاء.

يقول مصطفى عبد الشافي الشوري في نسق الثور الوحشي: "الثور دائما يفضل الأمن والسلم، ولا يطلب العنف والقتال، ولا يؤدي الكلاب إلا دفاعا عن النفس" (الشوري، 1996، صفحة 117).

هذا ما يجعلنا أمام فكرتين متناقضتين ومكملتين لبعضها في الوقت نفسه؛ فمن ناحية الثور يعتبر إله الحرب فهو إله القوة والخصب، ومن جهة أخرى هو يفضل السلم وتجنب القتال، ليس خوفا ولا ضعفا ولكن كما أسفلنا القول هو إله للحكمة أيضا، ولذلك كانت ثقافة الحرب في معتقد الجاهلي المقدس أحد أبواب الطهارة.

وبالعودة لبعض النصوص الشعرية الجاهلية نتمعن في هذه الظاهرة أو الحادثة أو الرؤية المطرية التي تتكرر بصورة غريبة لا يمكن لها أبدا أن تكون صدفة بحتة، أو حتى بريئة لأن الفكر الجاهلي متماسك له جذور قوية سواء أكانت قريبة من الحقيقة أم بعيدة عنها- هي ليست متذبذبة، ودليلا على ذلك تكرار مجموعة كبيرة ورهيبة من الصور عند شعراء كثيرين ليس فقط وصفا من قبلهم لطبيعة ما أو حيوان ما أو مشهد رحلة أو صيد، هو أكبر من ذلك هو تواصل فكرة بين الشعراء للإعلان عن قوتها واستمرارها في فكرهم وثقافتهم، فهو يحتاجون أكثر ما يحتاجون لأي معلم قوة أو صمود يتشبثون ويتعانقون بوحده بينهم.. تماما كفكرة المطر التي سبق دراستها من ناحية ارتباطها بالثور الوحشي (إله المطر) وكيف كان هذا الأخير على اعتباره بالدرجة الأولى راهبا أو قديسا وبالدرجة الثانية- إن لم تكن توازيها درجة- ارتباطه بالنار أو ارتباط المطر مباشرة بالنار.

وتكون بهذا دلالة الخوف التي تعترى الثور في بداية رحلته أو محنته ملتحمة مع لجوئه إلى شجرة الأروطة التي يخبئ فيها خوفه وتهدأ نفسه، إلا أنه وعلى ما يبدو من اقتران صورة المطر بهذا المشهد حين لجوئه إلى الأروطة وحيث يتحدث الشعراء عن البرق الذي يكشف ضوءه عن الثور

الضامر، وهنا ربما يكون شكل الثور أقرب إلى شكل الهلال وكان البرق، هو الضوء الذي يرسمه على جسده في نوع من الاتصال والتواصل بين الإله القمر السماوي والإله الثور الأرضي.

فنستوضح بهذا فكرة خوف الثور كحالة نفسية مقدسة في شعائر إنزال المطر، ففي حقيقة لجوئه الأسطوري إلى نبات الأرطى ما هو إلا تكملة لهذه الشعائر والأحداث، فالأرطى هي من تحتاج توسله لينزل الماء فتسقى بدورها وتنمو وتزدهر، فالنسق الثوري الأسطوري يصل إلى أعلى مراتب نضجه وتكاثف قوته في لحظات تضرعه وتوسلاته للاستمطار.

والمعنى نفسه يمكننا أن نقوله على تشبيههم لقطرات المطر المتجمدة على جلد الثور كأنها حبات لأولؤ أو كوكب يلعب، أو أحيانا يكتفي الشاعر بإيضاح المعنى عن كون الثور مضيء بنور... إلخ. كل هذه دلالات تحيل إلى ضوء القمر الذي يسقطه أو يرسل بعضا منه إلى ممثله في الأرض (الثور).

6- خاتمة

اعتمد الشاعر الجاهلي في ربطه بين النسق الأسطوري لقصة الثور الوحشي في القصيدة الجاهلية وعلاقتها بنسقية الاستمطار على اتحاد رمزي واضح بين قداسة الإله الثور/القمر وعلاقته بنسقية الاستمطار التي تتصل بجزء منها بالنار والحرق، فترمز إلى موت البقر من جهة، وتعبر عن الحياة للثور الذي يظهر كصانع للمطر؛ يرتل ويصلي ويلقي ندورا يتوسل فيها لإنزاله.

وما كان ذلك ليتحقق لولا اتصاله بالإله السماوي(القمر/الهلال) الذي يستقبل هذه الشعائر ويضمن له تحقيقها بنجاته وقدرته على خلق بداية جديدة للحياة بنزول المطر، وفي هذه النقطة تلنقي

عوامل تمسك الثور/الشاعر بالوجود والعوامل المعاكسة الأخرى التي تحاول قهره والسيطرة عليه.

7- قائمة المصادر والمراجع

1. ابراهيم عبد الرحمن. (1981). التفسير الأسطوري للشعر الجاهلي. مجلة فصول، 1 (3)، 131.
2. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري. (2004). لسان العرب (المجلد ط3). بيروت، دار صادر.
3. أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك الأصمعي. (دس). الأصمعيات (المجلد ط3). (أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، المحررون) القاهرة: دار المعارف.
4. أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري. (2009). الحماسة (المجلد ط1). (محمد نبيل طريفي، المحرر) الجزائر: دار الأبحاث.
5. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. (1965). الحيوان (المجلد ط2). مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.
6. أحمد محمد الحوفي. (دس). الحياة العربية من الشعر الجاهلي (المجلد دط). القاهرة: مكتبة نهضة مصر.
7. النابغة الذبياني. (2005). الديوان (المجلد ط1). (حمدو طماس، المحرر) بيروت: دار المعرفة.

8. امرؤ القيس. (2004). الديوان (المجلد ط2). (عبد الرحمن المصطاوي، المحرر) بيروت، دار المعرفة.
9. أمية بن أبي الصلت. (دس). الديوان (المجلد دط). (سيف الدين الكاتب، وأحمد عصام، المحررون) بيروت: دار مكتبة الحياة.
10. اوس بن حجر. (1979). الديوان (المجلد ط1). (محمد يوسف نجم، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.
11. بشر بن أبي خازم الأسدي. (1994). الديوان (المجلد ط1). (مجيد طراد، المحرر) بيروت: دار الكتاب العربي.
12. حسين الحاج حسن. (1998). الأسطورة عند العرب في الجاهلية (المجلد دط). بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
13. ريتا عوض. (1992). بنية القصيدة الجاهلية (المجلد ط1). بيروت: دار الآداب.
14. زهير بن أبي سلمى. (1988). الديوان (المجلد ط1). (علي حسن فاعور، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.
15. شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري. (دس). نهاية الأرب في فنون الأدب (المجلد دط). بيروت: دار الكتب العلمية.
16. عصام محمد المشهراوي. (2010). دلالات الوحدة في قصيدة الشعر الجاهلي. مجلة جامعة الازهر، 2 (12)، 128-129.
17. علي البطل. (1981). الصورة الفنية في الشعر العربي (المجلد ط1). بيروت: دار الأندلس للطباعة.
18. عمر بن عبد العزيز السيف. (2009). بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية (المجلد ط1). بيروت: مؤسسة الانتشار العربي.
19. لبيد بن ربيعة. (1993). الديوان. (حنا نصر الحتي، المحرر) بيروت: دار الكتاب الغربي.
20. محمد بلوحي. (2004). آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقارنة الشعر الجاهلي (المجلد دط). دمشق: اتحاد الكتاب العرب.
21. محمود شكيب الأنصاري، وعاطي عبيات. (1983). ملامح أسطورية في الشعر الجاهلي. مجلة آفاق الحضارة الإسلامية (25)، 19.
22. مصطفى عبد الشافي الشورى. (1996). الشعر الجاهلي تفسير أسطوري (المجلد ط1). القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان.
23. مصطفى ناصف. (1981). قراءة ثانية لشعرنا القديم (المجلد ط2). بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر.
24. ميمون بن قيس الأعشى. (دس). الديوان (المجلد دط). (محمد حسن، المترجمون) الإسكندرية: مكتبة الآداب.
25. وهب رومية. (دس). توظيف الأسطورة في الشعر الجاهلي. مجلة التراث العربي، د ط، 4.